فكاهات

رواية

جزآء الاحسان [1]

اشتهر احد كبرآء الانكليز بالغنى الوافر وعمل الخير والاحسان ومساعدة البائسين واغاثة الملهوف حتى لم يكن هناك من لم يحترمهُ ويدعُ لهُ بطول البقآء والخير . ولم يكن لهُ سوى ولدٍ وحيد يدعى فيليب رباهُ منذ حداثتهِ على اطوارهِ واخلاقهِ آملاً انهُ عند ما تحنيهِ الايام وتقيدهُ الشيخوخة عن السعي يقوم ولدهُ هذا مقامهُ في تدبير املاكهِ وضبط ثروتهِ واقتفآء اثرهِ في المبرات والاحسان . ولما بلغ فيليب الحادية عشرة من عمرهِ دعاهُ والدهُ اليهِ وقال لهُ قد حان وقت ارسالك الى المدرسة الجامعة لإكمال دروسك وانهُ ليشقُّ عليَّ مفارقتك هذه المدة وانت محل تسليتي وسروري لكن حب مستقبلك يدفعني الى ذلك فكن رجلاً يا عزيزي وجاهد ما استطعت وعُد اليَّ قبل فنآء حياتي لارى خليفة اللُرد لنكستر ووارث مجدهِ

فبرقت اسرَّة الغلام وقال ان هذا غاية ما اتمناهُ وما كنت انتظرهُ منك يا والدي وهآءنذا مستعدٌّ للذهاب وسأرجع اليك ان احياني الله رجلاً جديداً لا تخجل ان تدعوهُ ابنك . ثم خفض صوتهُ وحنى رأسهُ قليلاً

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وقال غير اني قبل ذهابي اسالك نعمةً واحدةً يا ابي فهل تسمح لي بها . قال سلني ما تشآء يا عزيزي ولو رمت ان تجعل فؤادي كرةً تلعب بها لما منعتكهُ . قال انت تعرف جورج ابن الغسالة رفيقي في اللعب فهو يتيمٌ فقير لا معين لهُ ولا مجير سوى والدتهِ المسكينة التي لا تكاد تتمكن من اشباعهِ الخبز وقد علمت انهُ ميالٌ للعلم فانهُ كثيراً ما قال لي والدموع في عينيهِ انهُ يفضل الموت على ان يبقى جاهلاً وانت يا والدي لديك من المال ما يمكنك من مساعدة الايتام والمساكين فهلاَّ حسبت جورج اخاً لي وارسلتهُ واياي لنتعلم معاً

فلم يملك الوالد عبرتهُ عند هذا الكلام فمسح دموعهُ ثم رفع ولدهُ الى صدرهِ وقبَّلهُ وقال لك ما تحب يا فيليب فاذهب وقل لجورج انك ستأخذهُ معك وعلى نفقتك واستعدّ الآن لتسافرا في اول الاسبوع القادم . فانحنى الولد على يدي والده يقبلهما ويغسلهما بدموع الشكر ثم اسرع الى صديقهِ المسكين يبشرهُ ويتشاطران السرور

وفي الاجل المعين سافر اللرد لنكستر بالولدين بعد ان جهزهما بكل ما يحتاجان اليهِ فاوصلهما الى المدرسة واوصاهما واوصى بهما ثم ودعهما ورجع الى زوجتهِ واقاما يتشاكيان مرارة فراق الغلام ويحسبان الايام لرجوعهِ

وبعد ثماني سنوات اكمل الولدان دروسهما وحصَّلا الشهادات والامتيازات التي استحقاها باجتهادهما وعادا الى الوطن يطفح وجهاهما بالسرور والبشر . وبعد ان اقاما مدةً دعا اللرد ولدهُ فيليب وقال لهُ تعلم اني قد صرت رجلاً مسنًّا وعن قليل سيقعدني الهَرَم عن الاشغال فلا بدّ لك ان تترشح

لان تنوب عني في تولي مهماتنا وقد رأيت ان اجهزك بألفي ليرة تتعاطى بها اعمال التجارة مدةً من الزمن وقصدي بذلك ان تختبر اخلاق الناس ومعاملاتهم حتى تعرف كيف تتصرف بينهم في مستقبل ايامك فهل تميل الى ذلك . قال اني اتعاطى ذلك بكل سرور ولاسيما وان فيهِ مرضاة والدي وسرورهُ ومنفعتي في المستقبل لكن يسمح لي والدي ان اذكر لهُ امراً واحداً . قال قل يا عزيزي ما بدا لك . قال انك قد انعمت على صديقي جورج بادخالهِ معي في المدرسة حتى احرز من العلم مثل ما احرزتهُ انا واضحى بمنزلة ولدٍ لك واخٍ حقيقيٍّ لي وقد اصبح الآن في سنٍّ وحالٍ هو فيهما احوج الى المساعدة فهل تسمح ان اشاطرهُ المبلغ الذي عينتهُ لي ليكون لهُ رأس مالٍ يستعين بهِ على معيشتهِ . قال أفعل بكل نفسٍ طيبة وازيدك الفاً اخرى عوض الالف التي ستُقسم لصاحبك جورج ثم دخل مكتبتهُ وقطع لهُ حوالةً بمبلغ ثلاثة آلاف ليرة فاعطى جورج منها نصيبهُ . فلم يدرِ جورج باي عبارةٍ يشكرهُ على ذلك ثم جآء الى والدهِ اللرد فحيا بتأدُّب ثم وقع على قدميهِ يقبلهما وقال اني قد حرمني الدهر والدي واسباب المعيشة ولكن الله عوَّضني اباً شفيقاً اقدر منهُ على تسهيل سعادتي ورزقني صديقاً هو ابرّ بي من الاخ الشقيق فقد جعلتماني من العدم شيئاً ورفعتماني من الفقر المدقع الى السعادة والرخآء فانا اشكركما ما حييت ولا اقول انني يوماً ما أفي بعض جميلكما لانني وما لي عبدكما ولكما

ثم استقل جورج بتجارةٍ تعاطاها وخدمهُ التوفيق فنجح وابدى فيليب فيما تعاطاهُ من الاشغال مهارةً وحذقاً عجيبين حتى انشرح صدر والدهِ

وتيقن حسن مستقبل ولدهِ واحيآء مجدهِ ومجد أُسرتهِ ومن هنـاك اخذ يفوّض اليهِ الشيء بعد الشيء من مهماتهِ واشغالهِ فقام بها احسن قيام

وكان فيليب كلما سمحت لهُ الفرص يركب عربةً ويجول في انحـآء المدينة للنزهة وترويح النفس من مشاقّ الاشغال وبينا كان كذلك في بعض الايام اذ وقعت عينهُ على نافذة دار لاحد الكبرآء فرأى فيهـا فتاةً بديعة المحاسن اخذت بمجامع قلبهِ فلم يلبث ان أُخذ بشرك هواها ولبث بعد ذلك كلمـا خرج للنزهة يمرّ بذلك الموضع فيرى فاتنتهُ كانها بانتظارهِ وكانت بالحقيقة قد اصابها مثل ما اصابهُ من الوله والهيام فلم تعد تستمرئ طعاماً ولا تسرّ بشراب بل تنتظر كل يوم موعد مرورهِ فيكتفيان بتصعيد الزفرات وارسال سهام الاعين لشق الصدور

وما كان عبق هذا المسك ليختفي عن ذكآء اللرد لنكستر بعد ما رأى من ضعف ولدهِ وهزالهِ فاخذ يستدرجهُ بمـا طُبع عليهِ من الرقة والتلطف والحنكة الممزوجة بالحنو الوالدي الى ان اعترف لهُ بالحقيقة وقال لا اكتمك يا ابي انني رأيت فتاةً طرحتهـا التقادير في طريقي والصقتها بفؤادي وعلمت انهـا تحبني كما احبها فاذا جعلها الله نصيبي عشت سعيداً واذا حرمنيها الدهر قلت على الحياة السلام . فقال اللرد ان غاية ما اتمناهُ يا فيليب انا ووالدتك ان نرى لك شريكةً في حياتك تشاطرك احوالها وتكفل لك السعادة والهنآء بشرط ان تكون من الفتيات الشريفات اللواتي لا يضيع بهنَّ دم لنكستر فمن هي فاتنتك يا ترى فان كانت ممن احبهنَّ لك بذلت وسعي في تسهيل زواجك بها وايقنت اني انحدر الى قبري بسلام .

قال اني قد بحثت عنها يا والدي وهي مريم ابنة اللرد يُرك ووارثتهُ الوحيدة . فلما سمع والدهُ ذلك قطب حاجبيهِ فقال فيليب ما لي اراك قد استأت . عفواً يا والدي العزيز فاني لا اشتري كل نسآء العالم بأن تستآء ولو طرفة عين . فقال اني لم استأ يا عزيزي بل اعجب من مهارتك في الانتخاب فليس في كل انكلترا من اتمناها لك اكثر منها . غير اني تذكرت اطوار والدها وحقدهُ عليَّ لاسبابٍ قديمة فعسى ان تكون حادثتكما هذه سبباً لابطال الضغائن وتجديد علاقات المصافاة

ثم انهُ في نفس الاسبوع احيا اللُرد يُرك ليلةً احتفل فيها بعقد خطبة فيليب لمريم بمشهد الانسبآء والاصدقآء واخذ الخطيبان يتزاوران ويوثّقان علائق الوداد الا ان ذلك لم يكن ليغير اطوار الوالدين فلبثا على ما كانا عليهِ من المقاطعة والتدابر

وبعد مدةٍ استدعى اللُرد يُرك صهرهُ وقال لهُ انني احبك جدًّا ياعزيزي فيليب ولا اجهل مقدار ثروتك واقتدارك على ان تعيش في اسعد حال ولكن اعلم يا ولدي ان لا حالة تدوم وربما لا سمح الله انقلبت بك احوال الدهر وذهبت اموالك فهلاَّ تعلمت صناعةً او فنًّا يقيك من الفاقة ويكون سلاحاً لك في وجه النوازل وعوناً على المقادير . فاذا قبلت نصيحتي فاني اشير عليك بتعلم الطب فانهُ صناعة شريفة اذا احتجت اليها تكفل لك مستقبلاً سعيداً . قال انهُ رأيٌ حسن ونصيحة مقبولة ولكن .... قال ولكن يصعب عليك فراق مريم ... أفلست رجلاً اولا يمكنك ان تملك ارادتك اربع سنوات مدة تغيبك وانا اتيقن ان هذا الغياب يوثّق اسباب

حبكما ويكون اصلح لزواجكما اذ لا تزالان حديثي السن

وبعد محادثة قليلة وعد فيليب بالاجابة الى رأي حميهِ بعد استشارة والديهِ وحبيبتهِ . اما الوالدان فلم يمكنهما الا استصواب الرأي ولو كرهاً واما مريم فلم تجب الاّ بسكب العبرات ولم تسمح بسفره الا بعد ان اقنعها والداها بلزوم ذلك . وهكذا سافر فيليب بعد الوداع وتوطيد عرى الولآء وكلف صديقهُ جورج ان يكون وكيلاً للرسائل بينهُ وبين مالكة فؤادهِ ولم يكد يصل الى مدرستهِ حتى خطَّ لها اسطر الشوق وعبارات الحب وفي اليوم الثاني ورد عليهِ جوابها ولم تزل المكاتبات متصلة كل يوم مدة السنة الاولى . وكان فيليب في الوقت نفسهِ يجهد قواهُ في دورسهِ حتى أُعجب بهِ اساتذتهُ ونزل من قلوبهم منزلة الحب والاكرام

وفي اوائل السنة الثانية اتاهُ من حبيبتهِ كتابٌ تقول فيهِ « لا تنتظر ياعزيزي فيليب ان اكتب اليك يومياً كالعادة فانهُ لم يعد عندي ما اكتبهُ واني اخاف ان يعوقك اتصال مكاتباتنا هذه عن دروسك ويطيل غيابك عن محبتك مريم » . فاجابها فيليب ان كثرة المراسلات لا تعوقهُ عن دروسهِ بل تزيد في رغبتهِ ونشاطهِ وتقويهِ على احتمال مرارة الفراق . غير انهُ في ذلك الاسبوع لم يحصل على جواب منها فانكسر قلبهُ وحزنت روحهُ وامتنع عن الطعام فذبل ورد وجنتيهِ وفارقت شفتيهِ تلك الابتسامات الحلوة ولاحظ اساتذتهُ ورصفآؤُهُ حزنهُ فاجتهدوا جميعاً في ملاطفتهِ وتسليتهِ . وفي الاسبوع الثاني ورد على فيليب رسالة من صديقهِ جورج يقول فيها « لا بدّ ايها الحبيب انك في قلقٍ لانقطاع مريم عن

مكاتبتك واني رأيت فيها هذه المدة تغيراً عظيماً فهي على ما اظن قد مالت عنك الى سواك واني انصح لك ان تقلع عن هواها ولا تهتم بمن لا يهتم بك فان سلوّها من الآن مع ما فيهِ من الصعوبة افضل من زيادة تعلقك بها وهي لا تميل اليك » . فما كاد فيليب يتم قرآءة هذه الكلمات حتى شعر كأن روحهُ قد اختُطفت من بين تراقيهِ وسقط لا يعي شيئاً . ولما رآهُ رئيس المدرسة امر بنقلهِ الى سريرهِ وعين لهُ طبيباً يتعهدهُ وممرّضةً تسهر عليهِ فبقي اسبوعاً كاملاً تحت اشدّ اثقال الحمى لا يُعرَف بقآؤهُ في الحياة الاَّ من صياحهِ تحت غيبوبة الحمى بالفاظٍ متقطعة واسمآءٍ مبهمة . ولما اخذ يتعافى وعلم بوجود الممرّضة سألها عن نسبها ووطنها ولما علم انها آتيةٌ من بلدهِ سألها هل تعرف أسرة اللُرد يُرك فاجابتهُ انها تعرفها . فسألها هل تعرف ابنتهم مريم فقالت انني خدمت في بيتهم ستة اشهر لتمريض والدة اللرد وقد علمت ان مريم كانت مخطوبة لابن اللُرد لنكستر وان خطيبها سافر لاشغال لم اعلمها ووكّل صديقاً لهُ اسمهُ جورج ليكون واسطة المكاتبة بينهما وكان جورج يقوم بما فُوّض اليهِ بكل امانة . فلما استدعوني اليهم رأيت جورج المذكور يبذل جهدهُ في الزيارات لمريم وتسليتها وايصال المكاتبات اليها وكان بعد دخولي بيتهم يظهر لي ميلاً والتفاتاً غير عاديين ولم تطل المدة حتى اعترف لي بحبهِ وميلهِ للاقتران بي فاغتررت بكلامهِ غير عالمة بمقاصدهِ السيئة واعمالهِ الدنيئة . ثم كثرت زياراتهُ لبيت اللرد وكنت احسب ذلك حسب قولهِ رغبةً في مشاهدتي الى ان قدم ذات ليلةٍ وهو يتهلل فرحاً ثم دخل بي الى غرفتي وقال انني قد ادركت مرامي يامرثا . قلت

في ماذا قال فيما اشتغلت بهِ سنةً كاملة فانني من حين وقوع نظري على مريم احببتها وعزمت على استخلاصها من فيليب بأية حيلةٍ استطعتها وقد وجدت صعوبةً عظيمة في اوّل الامر لكن طول غياب خطيبها خفف من حبها لهُ حتى امكنني اجتذاب قلبها وفي هذا النهار حصلت على وعدها بالاقتران بي . اما اظهاري الحب لكِ فلم يكن الاَّ لمساعدتي في دخولي وخروجي بدون نكير فها انا اودّعكِ واتمنى لكِ الخير . وقبل ان اتمكن من مجاوبتهِ تركني وذهب وفي الصباح تأكدت ما سمعت فان مريم نفسها اخبرتني انها احبت جورج وستقترن بهِ في آخر يوم من الشهر الحالي

وكان فيليب كمن يسمع الحكم عليهِ بالاعدام وكانت حرارة الحمّى تزيد اضطراب دماغهِ غير انهُ تجلّد وقال لها اذًا تركت خطيبها الاوّل وستتزوّج ومتى سيكون عقد القران . قالت ميعاد اكليلها مساء غدٍ الساعة التاسعة في كنيسة القديس بولس

ولم يقوَ فيليب على الكلام بعد فسقط في غيبوبةٍ من الحمى المحرقة التي جددها عليهِ هذا النبأ وظنتهُ الخادمة قد نام فخرجت واغلقت الباب . ولما كان المساء استيقظ فيليب فجمع قواهُ المتضعضعة وجهّز امتعتهُ وكتب الى رئيسهِ كتاباً يقول فيه « ان اسباباً مهمة تستدعي ذهابي الى بيتنا حالاً ولو استأذنتك في الذهاب لما سمحت لي خوفاً على صحتي ولذلك اضطررت ان افرّ فاعذرني على خرق القانون هذه المرة الوحيدة . » ثم وضع الرسالة على سريرهِ وانتظر الى ان انتصف الليل فانسلّ في الدهليز الخارجي الى حديقة المدرسة ووثب منها الى الشارع واخذ يجري مدفوعاً بالعوامل الفعالة

في دماغهِ وحرارة الحمى وهو لا يبالي بهزيم الرعد وانسكاب المطر وما زال يعدو حتى بلغ محطة السكة الحديدية فوجد القطار قد سافر وهو يسمع صفيرهُ فعضَّ على يديهِ تلهفاً وجرى في اثر القطار لعلهُ يدركهُ ولما رأى عدم امكان ذلك عزم ان يتابع سيرهُ فاما ان يصل المدينة في الميعاد او يموت في الطريق. فكان يقع تارةً ويقوم اخرى في ذلك الليل المزعج حتى وصل الى الكنيسة قبل ميعاد الصلاة بثلاثين دقيقة وكانت مفتوحةً ومزينةً بالازهار والانوار فانسلَّ بدون ان يُرى واختفى بين ازهار المذبح منتظراً قدوم العروسين . فلما حضرا وباشر الكاهن رسوم الاكليل خُيِّل للعروس انها رأت شبح خطيبها الاوَّل فارتعدت فرائصها ولما سألها الكاهن عن قبولها جورج بعلاً لها واجابت نعم تحقق لها ان الشبح الذي رأتهُ هو نفس فيليب. فصاحت صيحةً عظيمةً وسقطت مغشياً عليها. واغتنم فيليب فرصة انهماك الحضور فخرج مستتراً وتوجه الى بيتهِ وكان والداهُ خارج البيت فاوصى الخادم ان يعرّفهما بمجيئهِ حال رجوعهما . ولما دخل غرفتهُ شعر بانحطاط قواهُ فاسرع الى مكتبتهِ وكتب رسالتين في غاية الاختصار الاولى الى مريم يقول فيها « اني لم ازل الى دقيقة موتي مقيماً على حبكِ اميناً على عهودي ولو كان عندكِ ذرّةٌ من الوفآء لما تركتني وانشغفتِ بجورج الخائن الذي لم يرَ ان يكافئ احساني باحسن من هذا. فكفاني انتقاماً منكِ ان تكوني زوجة خائنٍ جاحد للجميل وكفاني انتقاماً منهُ ان لهُ زوجةً متقلبة الاطوار لا تدري معنى الحبّ . وجل ما اطلب منكما يا قاتليّ ان تمرّا على قبري وتقولا رحمهُ الله لقد احسن الينا وكان اميناً . واما الرسالة الثانية

فكانت الى والديهِ يخبرهما بتفاصيل قصتهِ ويتمنى ان يراهما قبل وفاتهِ ويصبّرهما ويعزّيهما على فقدهِ . ثم وضع الرسالتين على مائدتهِ ولما لم يعد قادراً على الحركة انطرح بقرب سريرهِ واستعدّ للموت وهو يتضرّع الى الله من قلب كسير ان يمهلهُ ريثما ينظر والديهِ نظرة الوداع

ولما جآء والداهُ وعلما برجوعهِ اسرعا الى غرفتهِ ولما بلغا الباب امسك الاورد بذراع زوجتهِ وقال لها لا تقطعي صلاتهُ ولننتظر هنيهةً اما فيليب فكان يسمع كلامهما وهو غير قادر ان يبدي اقل اشارة ولما طال الوقت ورأت والدتهُ الحالة التي كان فيها لم تستطع صبراً فدخلت والقت نفسها على ولدها ففتح فاهُ كمن يحاول الكلام ثم فاضت روحهُ بين ايدي والديهِ

. . . . . .

وبينما كانت كؤوس الافراح دائرة في بيت جورج وصلت رسالة فيليب فقرأتها مريم وهي غائبة الرشد ثم صرخت نعم انا الخائنة انا القاتلة فقد قتلتهُ بيدي . كلا يا جورج لن اكون عروساً لك فانني قاتلة وانك خائن وقاتل . فاسرع جورج واختطف الرسالة من يدها ولما قرأها فقد عقلهُ من تبكيت الضمير فتناول مسدّساً وقبل ان يتمكن احدٌ من امساكهِ الهب برصاصهِ دماغهُ . وفي اليوم الثاني خرجت مريم الى دير لاخوات الرحمة فاقامت بهِ وبعد ان مضت عليها عشرة ايام دخلت الراهبات غرفتها فوجدنها ملقاةً على سريرها جثةً بلا روح وبجانبها وصاتها الاخيرة تناشدهنَّ فيها ان يدفنَّها في قبر فيليب وان يُنقش على ضريحها « لم تجمعنا الحياة فجمعنا الموت »